أسرة الفكون شيوخ الإسلام وشيوخ بلد قسنطينة من عز العثمانيين إلى ذل الفرنسيين

د/ جميلة معاشي

جامعة قسنطينة2

الملخص

تميزت السياسة العثمانية في الجزائر بالمرونة تجاه القيادات المحلية، وهو الأمر الذي جعل عددا كبيرا من الأسر تحافظ على نفوذها بالبلاد طيلة الحكم العثماني، وهو ما ينطبق على أسرة الفكون بمدينة قسنطينة، إذ استطاع الحكام العثمانيون كسب ولاء هذه الأسرة وجعلها تسير في ركابهم وتخدم سياستهم حتى نهاية حكمهم، ومقابل هذا الوفاء حافظ العثمانيون من جهتهم على علاقتهم بهذه الأسرة بما منحوه لها من امتيازات أدبية ومادية، ويأتي على رأس هذه الامتيازات منصب شيخ الإسلام الذي لم يكن يعني المكانة الدينية للأسرة فحسب، بل كان يشمل الوزن السياسي والثقافي للشيخ بقسنطينة، والجزائر ككل.

وعكس العهد العثماني، رفضت الأسرة خدمة الفرنسيين، وكان تعيين حمودة بن محمد الفكون، رغم رفض والده، شيخا للبلاد من طرف الفرنسيين أول خطوة تخطوها السلطة الفرنسية نحو أسرة الفكون لكسب ولائها وولاء الأهالي من ورائها، وأول خطوة تخطوها هذه الأخيرة نحو ذل لم تعهده في ظل الحكم العثماني، فمن خلال الرسائل العديدة التي ضمها أرشيف الأسرة نلمس صورا عديدة من أسلوب التملق لأفراد الأسرة وعلى رأسهم الشيخ حمودة بن الفكون للسلطة الفرنسية وبداية

الرضوخ لمطالبها المادية والسياسية، وذلك مباشرة بعد احتلال المدينة. وبالإضافة إلى تراجع هيبة أسرة الفكون لدى السلطة الفرنسية تعرضت أملاكها الواسعة إلى النهب والحجز والتأميم، وهو موضوع معظم الرسائل التي أرسلها أفراد أسرة الفكون، وكذا جماعة أعيان المدينة للمطالبة باسترجاع أملاك الأسرة من قبضة الاستعمار الفرنسي.

المقدمة:

عرفت مدينة قسنطينة، منذ العصور الوسطى بأسرها العلمية العريقة، وهو ما أشار إليه مؤرخ الدولة الحفصية أحمد بن القنفد القسنطيني بقوله على لسان القاضي أبو محمد عبد الله بن النديم (682هـ/1285م): "...إن هؤلاء(أهل قسنطينة) كل بيت ترى أنها أرفع من الأخرى بأصالتهم في بلدهم وقدم نعمتهم"[1].

ومن الأسر التي اشتهرت بها مدينة قسنطينة أسرة ابن باديس وأسرة ابن عبد المؤمن وأسرة الكماد وأسرة الفكون، وغيرها من الأسر ذات الجذور العلمية والعرقية العميقة في قسنطينة، وما أن حل القرن 10هـ/16م، حتى أقحمت أسرتان من هذه الأسر في الصراع العثماني الحفصي على قسنطينة، وهما أسرة عبد المؤمن وأسرة الفكون.

فقد أخذت قسنطينة، العاصمة الثانية للدولة الحفصية، منذ نهاية القرن (9هـ/15م)، تخرج تدريجيا عن السلطة المركزية بتونس، ولم تستطع الدولة الحفصية، رغم محاولاتها المتكررة، إعادة سيطرتها على الوضع بالمدينة وأريافها، وفرض نفوذها من جديد على السكان، فكانت كلما أرسلت واليا جديدا قُتل[2]، إذ أرسل السلطان

---

[1]- انظر: أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب بن القنفذ القسنطيني: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص 149.

[2]- انظر: الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص 429.

"الحسن بن محمد" أخاه "الناصر" لتهدئة الوضع وإعادة نفوذ الدولة على المدينة. إلا أنه قُتل فأرسل بعده أخاه "عبد الرحمن" فقُتل بدوره، ثم قُتل أخوه الثالث "عبد المؤمن" في نفس الظروف، وبذلك بقيت مدينة قسنطينة ولفترة طويلة لا تخضع لأي حكم مركزي[1].

وبقيت قسنطينة تابعة مباشرة لسلطة جماعة المدينة المكونة من أعيانها وكان على رأسهم آنذاك أسرة عبد المؤمن[2] التي توارثت مشيخة الإسلام بالمدينة طوال فترة الحكم الحفصي، وأسرة الفكون[3]، التي بدأ نجمها يصطع في نهاية العهد الحفصي لما وصلت إليه من مال وجاه، وبينما تمسكت الأولى بوفائها للحكم الحفصي ودافعت عنه، أعلنت الثانية عن ولاءها للوافدين الجدد وهم العثمانيون.

– ولاء أسرة الفكون للعثمانيين :

---

[1]– محمد المهدي شغيب: أم الحواضر في الماضي والحاضر، دار البعث للنشر، قسنطينة، الجزائر، ص131.

[2]– أسرة عبد المؤمن: هي احدى الأسر الشريفة التي قدمت من المغرب الأقصى لتستقر منذ القرن 8هـ/14م، بقسنطينة، حيث وجدت من سكانها ومن الحكام الحفصيين كل الاحترام، وقد منحها هؤلاء منصب "شيخ الإسلام" وهو أعلى منصب ديني بالمدينة ومنصب أمير ركب الحج، وقد بقي هذان المنصبان متوارثان في الأسرة حتى نهاية العهد الحفصي. أنظر:

Mercier (E): "Constantine au 16eme siècle, (elevation de la famille Elfeggoune)", in R.S.A.C. 1878, pp217–218.

[3]– أسرة الفكون: وتنطق "الفقون" EL feggoune تعود أصولها، حسب ما جاء في كتابات شيوخها، إلى قبيلة تميم العربية، أما الشيخ عبد القادر الراشدي، مفتي قسنطينة في نهاية القرن 12 هـ/18م، فيرجع أصل الأسرة إلى قرية فكونة بالأوراس، وبذلك ينسبها إلى الأصول البربرية وهذا ما رفضه أبناء الأسرة بشدة، والحقيقة، حسب عميد الأسرة الشيخ حسونة، فإن انتسابهم إلى فكونة كان بسبب استقرار أحد أجدادهم بهذه القرية، إذ جاء إخوة أربعة من الجزيرة العربية واستقروا بالمغرب الأوسط: الأول: وهو عبد الرحمن بقرية فكونة بالأوراس، والثاني وهو محي الدين بعين الصفراء ويقال أن البيض سيدي الشيخ سميت على اسمه، أما الثالث وهو محمد فقد استقر بقسنطينة في حين توفي الرابع وهو الرشيد بعد وصوله إلى المنطقة مباشرة، ويقول نفس المصدر أن الشيخ عبد الرحمن انتقل من فكونة إلى قسنطينة وبها عرف بالفكون. (مقابلة شخصية في بيت الشيخ حسونة الفكون بحي المنصورة في جانفي 1989)، وقد كانت أسرة الفكون أسرة أدبية علمية في العهد الحفصي قبل أن تتعمم في ... في ظل الحكم العثماني.

مثلما جاهرت أسرة عبد المؤمن بعدائها للعثمانيين جاهرت أسرة الفكون بولائها لهم، ويبدو أن اتصال العثمانيين بزعيم أسرة الفكون، يحي بن محمد الفكون، كان مبكرا، إذ يعود، حسب بعض المراجع[1]، إلى سنة (928هـ/1522م) حين اتصل قائد الحامية العثمانية المرابطة على مشارف قسنطينة بالشيخ للتوسط له لدى قبيلة أولاد يعقوب الذواودة لتموينهم بالمواد الغذائية مقابل تزويد القبيلة بالعتاد الحربي، وقد تمت هذه الصفقة بين الطرفين في نفس السنة.

وقد يتساءل المرء، هنا، عن الدافع الذي جعل العثمانيين يتصلون بأسرة الفكون للتعاون معها، دون غيرها من العائلات القسنطينية المشهورة، أمثال أسرة عبد المؤمن، التي كانت تتزعم الحياة الدينية بالمدينة. والواقع أننا لا نجد سببا واضحا لذلك سوى الاعتقاد بأن وجود الأملاك الواسعة لأسرة الفكون بالفحص الأبيض(الحامة)، على مشارف المدينة، جعل زعيمها "يحي بن محمد" يتصل بسهولة بالعثمانيين الذين كانوا يرابطون بالقرب من المنطقة، ولعل الشيخ أعجب بقواتهم ورأى أنها خير منقذ للبلاد بعد الضعف الذي آلت إليه الدولة الحفصية. كما أننا لا نستبعد استخدام العثمانيين لسياسة "فرق تسد"، التي ميزت حكمهم في مختلف الولايات العربية، بين الأسر القسنطينية فقربوا الأسرة الأقل شهرة لضرب أسرة عبد المؤمن الشهيرة والمناصرة للدولة الحفصية.

وإذا لم تكن علاقة أسرة الفكون بالعثمانيين، في (928هـ/1522م)، تتعدى الوساطة بين القوات العثمانية وأسرة عبد المؤمن، فإنها أصبحت في سنة (941هـ/1534م) تاريخ خروج آخر الولاة الحفصيين من قسنطينة، ولاء حقيقيا، إذ تشير المراجع إلى أن شيخ الأسرة "يحي بن محمد" خرج من قسنطينة، في هذه السنة للالتحاق بالقائد العثماني، خيرالدين بربروس، بتونس وتقديم الولاء له[2] إلا أنه

---

[1] **Mouloud Gaid: chronique des beys de Constantine, OPU, Alger, p7.**

[2] – هذا ما أورده المؤرخون الفرنسيون أمثال: E. Mercier في تاريخه لقسنطينة ص 193، في حين لم يذكر حفيده "الشيخ عبد الكريم" في مخطوط "منشور الهداية" غرض جده من السفر إلى تونس

استشهد هناك، في نفس السنة، إثر الحملة الاسبانية على تونس، فاعتبره العثمانيون شهيدا من شهدائهم واعترافا بجميله، باعتباره المؤيد الأول لهم بقسنطينة، عين باشا الجزائر ابنه أبا الفضل قاسم (ت 965هـ/1557م) قاضيا على قسنطينة، بعد أن رفض الشيخ "عمر الوزان" هذا المنصب. واستمر ولاء أسرة الفكون للعثمانيين حتى نهاية حكمهم.

– موقف أسرة الفكون من دخول العثمانيين مدينة قسنطينة:

عقب وصول العثمانيين إلى مشارف قسنطينة مباشرة ظهر بالمدينة تياران متنافسان: تيار معارض للوافدين الجدد، ومتمسك بالحكم الحفصي، وتيار مناصر للعثمانيين ويعمل على تسهيل دخولهم إلى المدينة. وكان التيار الأول بزعامة شيخ الإسلام "سيدي عبد المؤمن"، والتيار الثاني بزعامة الشيخ يحي بن محمد الفكون أحد أعيان المدينة وكبار أثريائها.

ونتيجة لهذا الوضع انقسمت مدينة قسنطينة إلى فريقين متحاربين تمركز الأول بالمنطقة العليا للمدينة، وتشمل منطقة سكن أسرة الفكون والمعروفة بحارة أولاد سيدي الشيخ أو "بطحاء أولاد سيدي الشيخ"، وتمركز الثاني بمنطقة سكن أسرة عبد المؤمن بحي "باب الجابية"[1]، حيث بقي مسجد الأسرة قائما، حتى اليوم، وقد نشبت

بل اكتفى بالقول:" وانتقل الجد لتونس لواقعة بل وقائع فاستعظم سكناه ببلد يخرج إليها الأمر دون ما يخرج منها..."، أنظر، عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص 42.

[1]– كانت مدينة قسنطينة مقسمة إلى 4 أحياء رئيسية هي : حي القصبة في الشمال الغربي للمدينة وكانت خاصة بالحكام والإداريين، وحي الطابية بالجنوب الغربي، حي باب القنطرة بالشرق وباب الجابية بالجنوب الشرقي ويفصل بين هذه الأحياء أسواق عامة ومناطق حرفية، وقد قسمت البطحاء، في العهد الفرنسي، بطريق عرف عند السكان" بالطريق الجديدة" وهي شارع العربي بن مهيدي حاليا. حول هذا التقسيم، أنظر:
Mercier (E): Constantine avant la conquête française 1837", in R.S.A.C, 1878, p 47–48.

حروب طويلة بين الطرفين لتمسك كل منهما بموقفه وإصرار العثمانيين على دخول المدينة.

فبأمر من الشيخ سيدي عبد المؤمن أغلقت أبواب مدينة قسنطينة في وجه القائد العثماني، حسن آغا، الأمر الذي جعله يتمركز بسطح المنصورة في انتظار الظرف المناسب لدخول المدينة دون الاضطرار إلى سفك الدماء، ومن هناك تم الاتصال بالشيخ عبد الكريم الفكون[1] لتسهيل دخول القوات العثمانية إلى المدينة، فكانت نصيحته للقائد العثماني بالتقرب من شيخ الإسلام "سيدي عبد المؤمن"، والتعهد له بالإبقاء على سلطته الروحية بالمدينة، وأكد له أن ذلك كفيل بفتح أبواب المدينة أمامه.[2]

إلا أن محاولات العثمانيين لاستمالة الشيخ عبد المؤمن المفتي للحفصيين باءت بالفشل،[3] الأمر الذي أدى بهم إلى استعمال الحيلة لاستدراج الشيخ إلى سطح المنصورة، بدعوى التفاوض حول الصلح، وهناك تم اغتياله،[4] ومما جاء عن هذه

---

[1]– هو ابن الشيخ يحي بن محمد الفكون.

[2] Cherboneau (A): Inscriptions arabes de la province de Constantine, R.S.A.C, 1856-57, p98.

[3]– لعل ذلك يعود إلى اعتزاز هذا الشيخ بنسبه الشريف وعدم اعترافه بخلافة العنصر التركي على المسلمين.

[4]– تقول بعض المصادر منها الكتابات الفرنسية بصفة عامة و"تاريخ حاضرة قسنطينة" لابن العطار: أن الشيخ عبد المؤمن قُتل عن طريق السم بسطح المنصورة، وأن العثمانيين قاموا بسلخ جلده وملأوه قشا قبل أن يرسلوه إلى مدينة الجزائر. إلا أننا نشكك في صحة هذه الرواية لمبالغة الأهالي في وصف مظالم الترك للكتاب الفرنسيين أثناء كتابتهم لتاريخ الفترة العثمانية: كما أننا لا نعتقد أن العثمانيين يمثلون بجثة شخصية بمكانة الشيخ عبد المؤمن "شيخ الإسلام"، وخاصة في بداية عهدهم لأن ذلك لا يخدم أغراضهم بالمنطقة. وقد جاء في تعليق الباحث فايسات "*Vayssette*" على هذه الواقعة: "أنها خرافة (*legende*) لا يمكن تصديقها دون تمحيص. حول الموضوع انظر:

Vayssette: Histoire de Constantine sous les beys depuis l'invasion turque jusqua l'occupation Française 1535-1837.Constantine 1869, pp82-83.

Cherboneau (A), op.cit, p98

الحادثة في تاريخ الشيخ أحمد بن العطار ما يلي: "ونزل الأتراك بسطح المنصورة وشرعوا في بناء قصبة هناك لعسكرهم وأظهروا العدل والسياسة وخالف سيدي عبد المؤمن وأهل حومة باب الجابية على الترك وقابلوهم ثلاث سنين إلى أن تحيلوا على الشيخ سيدي عبد المؤمن وكانت له مشيخة فصالحوه ولم يزالوا ينصبون له حبائل المكر والخداع حتى تمكنوا به..."[1].

بعد مقتل الشيخ عبد المؤمن سنة (980هـ/1572م)، هاجم العثمانيون المدينة وحاصروا أسرته وأتباعه، الذين أصروا على المقاومة، بحومة باب الجابية، ودام القتال، حسب بعض المراجع، مدة يومين كاملين، انتهى بالقضاء على هذه المقاومة وسلمت الأسرة أسلحتها لجماعة المدينة، ورفعت المتاريس التي وضعت حول الحي المذكور، وبذلك فرض الأمن بالمدينة بفضل تدخل علماء المدينة وعلى رأسهم أسرة الفكون المناصرة للعثمانيين.

أما عن مصير أسرة عبد المؤمن الثائرة، فرغم هزيمتها، فإن العثمانيين احترموا شيوخها لمكانتهم الدينية وأبقوا للأسرة جميع ممتلكاتها بل يبدو أن هؤلاء تركوا بعض المهام الدينية، منها إمارة ركب الحج في يد شيوخ هذه الأسرة حتى زمن متأخر من حكمهم.[2] وخير أفرادها بين البقاء بالمدينة أو الرحيل عنها، فاختار بعضهم البقاء في حيهم، بعيدا عن أي نشاط سياسي أو اتصال بالحكام الجدد، ورحل البعض الآخر إلى جنوب البايلك ليستقروا بمدينة بسكرة وضواحيها،[3] أما أتباع الأسرة وعلى رأسهم عرب أولاد صولة[4] فواصلوا مناوشاتهم للعثمانيين إلى أن هزموا وشردوا بدورهم فالتجئوا إلى الجنوب ليستقروا بمنطقة "ليانة" شرق مدينة بسكرة.[5]

---

[1]- أحمد ابن العطار: أحمد بن المبارك ابن العطار: تاريخ حاضرة قسنطينة، تحقيق: رابح بونار: الجزائر، 1971، ص ص57 -58.

[2]- عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص102.

[3] Mercier (E): Histoire de Constantine, Ctne, 1903, p229.

[4]- كانوا يزعمون مشيخة العرب في العهد الحفصي.

[5] Mercier(E): Idem, p229.

وتكريما لأسرة الفكون مُنح منصب شيخ الإسلام[1] للابن الثاني للشيخ "يحي"، وهو عبد الكريم (الجد)[2] (ت 988هـ/1580م) بعد أن أزيح الشيخ السابق، سيدي عبد المؤمن، من منصبه.[3] ولعل ذلك يعود إلى الدور الكبير الذي لعبه هذا الشيخ في السعي لدخول العثمانيين المدينة ثم استقرار حكمهم بها. ومن بين الأعمال التي قام بها لخدمة هؤلاء، مساهمته في إخماد العديد من الثورات، التي نشبت ضد العثمانيين، سواء كان ذلك داخل المدينة، مثل ثورة أسرة عبد المؤمن، أو خارجها مثل ثورة عرب

---

[1]– لم يرد ذكر شيخ الإسلام في وثائق رسمية كالفرمانات السلطانية (الظهائر) والمسائل الحكومية، وإنما كان الباشاوات يستعملون عبارات التبجيل والتقدير للشيخ دون ذكر لقب شيخ الإسلام. أنظر، رسائل باشوات الجزائر لشيوخ أسرة الفكون. العنتري: الفريدة المؤنسة ص3 وغيرها. و قد فسر أفراد الأسرة ذلك بأن اللقب كان يتبع مباشرة الإمامة والخطابة بالجامع الكبير. انظر:

Mercier (E): "Constantine au 16 siècle, Op.cit, p226.

أما أول من اقترن اسمه بهذا اللقب من شيوخ الأسرة فهو الشيخ عبد الكريم الفكون (الجد)، إذ سجل على شاهد قبره، الموجود حتى اليوم بزاوية آل الفكون بـ حي الخرازين بقسنطينة، العبارة التالية: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون، هذا قبر الولي الصالح، شيخ مشايخ الإسلام وقدوة الأنام، العالم المفتي المدرس أبو محمد عبد الكريم بن الشيخ العالم المفتي أبي زكرياء يحي الفكون رحمه الله ليلة الجمعة فاتح رجب سنة 988 هـ"، (1580م). ويكون الشيخ قد أخذ هذا اللقب بعد وفاة شيخ الإسلام الأسبق "سيدي عبد المؤمن" سنة 979هـ/1572م، ومن ذلك التاريخ أصبحت مشيخة الإسلام متوارثة في أسرة الفكون. ويقول Mercier أن العثمانيين كانوا قد تريثوا في منح اللقب لابنه الشيخ محمد بن عبد الكريم حتى تأكدوا من إخلاصه لهم على غرار والده. أنظر:

Mercier (E) , "Constantine au 16 siècle , Op.cit, pp224–226.

[2]– استعمل الدكتور أبو القاسم سعد الله عبارة (الجد) وعبارة (الحفيد) ليفرق بين شيخ الإسلام الأول (ت988هـ / 1580م) وشيخ الإسلام الثالث (ت 1073هـ/1668م).

[3]– اختلف الباحثون حول تحديد تاريخ انتقال مشيخة الإسلام إلى أسرة الفكون. فمنهم من يرجعه إلى سنة 1563م (Vayssette, p77)؛ ومنهم من يعيده إلى سنة 1566–67م أو سنة 1572م (Mercier et Féraud). أما المصادر العربية منها تاريخ قسنطينة لصالح العنتري وكذلك أحمد بن العطار فإنها لم تذكر شيئا عن تاريخ هذا الحدث، إلا أننا نستشف من قول ابن العطار أن ذلك كان بعد 3 سنوات من الحروب، أن الحدث كان في سنة 979هـ/1572م إذا اعتبرنا أن الحروب بين العثمانيين وسكان قسنطينة بدأت سنة 1568م. أنظر: ابن العطار: المصدر السابق، ص ص 57–58.

أولاد صولة. وكثيرا ما كان الشيخ يخاطر بنفسه عند خروجه لتهدئة هذه الثورات. وهو ما حدث سنة (975هـ/1567م) عندما غادر قسنطينة صحبة المفتي عبد اللطيف المسبح لتهدئة ثورة العربان خارج المدينة وكانت النتيجة أن وقع في قبضة الثوار[1] ولم يطلق سراحه إلا بعد تدخل القوات العثمانية وإخماد الثورة بالقوة، ولم تتوقف خدمات الشيخ عبد الكريم الفكون للعثمانيين بعد هذه التجربة الصعبة، بل عمل في السنة الموالية (976هـ/1568م) على السفر إلى الجزائر للقاء الباشا وتقديم الولاء له باسم سكان قسنطينة، إلا أنه وقع في تجربة أخطر من الأولى؛ إذ بمجرد وصول الشيخ والوفد المرافق له إلى مدينة الجزائر وصل خبر نشوب معارك دامية بين سكان قسنطينة والحامية العثمانية المرابطة بالقرب من المدينة، الأمر الذي جعل الباشا يشك في نوايا الوفد ويأمر بإلقاء القبض على أعضائه، إلا أنهم تمكنوا من الفرار إلى جبال القبائل، ولم ينقدهم من انتقام الباشا إلا تأكد هذا الأخير من براءتهم وحسن نواياهم، فقام بإكرامهم بدل معاقبتهم.[2]

وتذكر المراجع أن الباشا قام بحملة تأديبية ضد قسنطينة، عقب عودة الشيخ الفكون والوفد المرافق له مباشرة، وقد تم له إخماد الثورة وتنصيب رمضان تشولاق حاكما على المدينة[3]. أما الشيخ عبد الكريم الفكون فبعد عودته إلى قسنطينة مباشرة أخذ يدعو، جهارا وبحماس كبير إلى مساندة العثمانيين والدخول في طاعتهم وحاول إقناع جماعة المدينة بذلك، واستمر في خدمة هؤلاء حتى وفاته سنة (988هـ/1580م) وقد توارث أبناءه وأحفاده الولاء والإخلاص للعثمانيين وكان حفيده "عبد الكريم"، حسب صالح العنتري، وراء الاستقرار النهائي للعثمانيين بقسنطينة (1050هـ/1640م)[4] وهو ما جاء في قوله:"... وقع الخلاف بين أهل البلاد فبعضهم

---

[1]- عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص 49.

[2] – عبد الكريم الفكون: نفس المصدر، ص 48.

[3] – Vayssette: op.cit, pp67-68.

[4]- اعتبر العنتري هذا التاريخ بداية للحكم العثماني بقسنطينة إلا أن الواقع هو أن هذا التاريخ هو عودة

يقول نسلموها ونستريحوا(كذا) من العناد وبعضهم يقول لا نسلموا(كذا) بلادنا وفي تسليمها أمر قبيح علينا فلما كثر الكلام بينهم وتفاقم الأمر لديهم قابلهم سيدي الشيخ بن الفكون واحتج عليهم بالدليل القاطع وأشار عليهم بالرأي المصيب قائلا هؤلاء الترك قدموا من حضرة السلطان العثماني وهم من أبناء جنسه ونحن في بيعته وتحت حكمه إذ لا يليق بنا مقاتلتهم ولا يسعنا منعهم..."[1].

أمام حجة الشيخ الفكون خضع سكان المدينة وعلى رأسهم أعيانها لهذا الرأي واتفق الجميع على قبول الانضواء تحت الراية العثمانية، باعتبارها راية الإسلام، وبمجرد سماعه الخبر أرسل باشا الجزائر رسالتي شكر: الأولى إلى الشيخ الفكون يوصيه خيرا بالعناصر التركية بالمدينة، والثانية إلى سكان قسنطينة يذكرهم بأن طاعة العثمانيين تعني طاعة خليفة المسلمين باسطنبول ويوصيهم بالانصياع إلى رأي سيدي الشيخ الفكون لأنه يريد خيرهم وخير البلاد.[2]

-مكانة أسرة الفكون في ظل الحكم العثماني:

استمر إخلاص أسرة الفكون للعثمانيين وتفانيها في خدمتهم، واستمر تقدير هؤلاء لخدماتها وفضلها في حمل السكان على طاعتهم. وبذلك تبوأت الأسرة المكانة السامية بمدينة قسنطينة، فكانت كلمة شيوخها نافذة لدى العام والخاص ولا يستثنى في ذلك حتى الباي نفسه، وخاصة بعد أن انتقلت مشيخة الإسلام إليها. وهو ما أكده المؤرخ أحمد بن المبارك بن العطار في قوله: "فلما قتلوه (الشيخ عبد المؤمن) ردوا المشيخة إلى ابن الفكون، فمن ثم صار يمشي بالركب كما كان الشيخ سيدي عبد

استقرارهم بالمدينة بعد ثورة أحمد ابن السخري(1637-1640م)، والتي كادت أن تسقط الحكم العثماني بالشرق الجزائري، أنظر جميلة معاشي، الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري، رسالة ماجيستير، جامعة قسنطينة، 1992، ص323-333.

1- الفريدة المونسة، ص 3-4 .

2- إبراهيم الرسالتين، المنوي: نفس المصدر، ص ص 5-6.

المؤسس، وجعلوا ذلك من الخيرات التي حصلت له ولذريته بعده زماننا هذا[1]. والحقيقة أن شهرة الأسرة لم تقتصر على مدينة قسنطينة بل تعدت حدود ولاية الجزائر إلى تونس حيث كانوا محل تقدير حكام تونس ومحكوميها.

وعرفانا بجميل هذه الأسرة حافظ العثمانيون من جهتهم على علاقة جيدة بها فمنحوا شيوخها العديد من الامتيازات الأدبية والمادّية، ويأتي على رأس هذه الامتيازات توارث شيوخ الأسرة لمنصب شيخ الإسلام[2]، الذي كان حسب القوانين العثمانية، من حق المفتي الحنفي دون غيره، وإذا لُقّب بعض العلماء والشيوخ من الأسر الدينية بالجزائر بهذا اللقب احتراما وتبجيلا لمكانتهم الدينية فحسب، فإن لقب شيخ الإسلام في أسرة الفكون لم يكن يعني المكانة الدينية للأسرة فقط، بل كان يشمل الوزن السياسي والثقافي للشيخ بقسنطينة، والجزائر ككل، وقد بقي هذا اللقب وراثيا في أسرة الفكون دون غيرها من الأسر القسنطينية، حتى الاحتلال الفرنسي، وهو لقب منح الأسرة نفوذا روحيا كبيرا بالمدينة قارب نفوذ البايات أنفسهم، بل فاقه أحيانا، إذ كثيرا ما كان اتصال الشيخ بباشا الجزائر مباشرا، وكثيرا مالتجأ إليه هذا الأخير لإخماد ثورات بالمدينة أو إحباط مؤامرات من الإنكشارية أو البايات في قسنطينة قصد الانفصال عن دار السلطان[3].

وقد افتخر الشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد (توفي سنة 1663م) بمكانة أجداده بالمدينة، وحتى يبرز أن كلمة جده كانت أعلى من كلمة الباي نفسه أورد قصة الواقعة التي حدثت بين جده عبد الكريم(ت 1581م) والإنكشاري اليهودي الأصل "المختار" الذي تعرض بالشتم للنبي(ص) فحكم عليه الشيخ الفكون

---

[1]- ابن المبارك بن العطار: المصدر السابق، ص58.

[2]- انظر كلا من : العنتري: الفريدة المؤنسة ص5 و غيرها و:

Mercier (E) , "Ctne au 16 siècle , OpCIT P224-26, Opic P224-226

[3]- انظر الرسائل التي كان يرسلها باشوات الجزائر إلى شيوخ أسرة الفكون بمخطوط الفريدة المؤنسة لصالح العنتري.

بالإعدام، الأمر الذي أثار ثورة فرقة الإنكشارية من حرس قصر الباي[1] ورغم ثورة هؤلاء وتهديدهم بالاستقالة الجماعية في حالة إعدام رفيقهم، ورفُض قاضي المدينة لحكم الشيخ واتهامه بالتدخل في مهامه، وتدخل الباي شخصيا لالتماس العفو للانكشاري تمسك الشيخ الفكون بحكمه وأصر على تنفيذه ولم يتراجع عنه حتى نفذ حكم الإعدام في المتهم[2].

ولم يقتصر نفوذ شيوخ الإسلام على الجانب الديني بالمدينة بل تعداه للمشاركة في الحياة السياسية والإدارية، إذ بالإضافة إلى منصب شيخ الإسلام منح شيوخ الأسرة منصبا إداريا هاما هو منصب "شيخ البلد"[3]، وبذلك أصبح الشيخ الفكون يساهم في حل المشاكل التي تعترض سبيل الإدارة العثمانية لمدينة قسنطينة من ذلك ما بذله الشيخ عبد الكريم (الجد) للتوفيق بين سكان المدينة والحكم العثماني سنة 975هـ/1567م، وإقناعهم بفتح أبواب المدينة للحكم العثماني سنة 1050هـ/1640م.

ونفس الموقف وقفه شيخ الإسلام لصد هجوم مراد باي تونس على قسنطينة سنة 1112هـ/

1700م، ثم هجوم الثائر ابن الأحرش سنة 121هـ/1804م، على المدينة، إذ قام الشيخ بالتعاون مع قائد الدار "أحمد بن الأبيض" بحماية المدينة، رغم قوة الهجوم وغياب الباي "عثمان" عن المدينة[4].

بالإضافة إلى هذا كان لشيوخ الإسلام دور كبير في حل المشاكل الداخلية للمدينة ورعاية الأمن والاستقرار بها، فقد تدخلوا في العديد من الحوادث التي وقعت بين العثمانيين أنفسهم، وتمكنوا من إيجاد الحلول لها، ومن الأمثلة على ذلك تدخل

---

[1]- لعل اليهودي قد اعتنق الإسلام ليلتحق بسلك الجيش الإنكشاري (أنظر عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص.64).

[2]- عبد الكريم الفكون، نفس المصدر، 64 – 67

[3]- ورد هذا في عدة مصادر منها سجلات العدول لمحكمة قسنطينة (أرشيف ولاية قسنطينة) .

[4]- انظر: صالح العنتري. الفريدة المونسة، ومجاعات قسنطينة.

الشيخ "عبد الرحمن الفكون" ضد صالح باي عندما حاول الاستقلال عن السلطة المركزية بالجزائر وكادت الأحداث أن تتحول إلى حرب أهلية[1] بين المناصرين لصالح باي وأتباع الباي الجديد (حسين باشا)، إذ اعتمدت قوات الباشا، المرافقة للباي الجديد، على حكمة الشيخ للتمكن من القبض على صالح باي الذي اعتصم بداره ورفض الخروج منها إلا بحضور شيخ الإسلام، وذلك طمعا في شفاعته عند الباشا والنجاة من القتل، وقد اتجه الشيخ فعلا إلى دار الباي وتمكن من إخراجه منها بعد أن وعده بالحماية، ليسلمه بعد ذلك إلى آغا القصبة لإعدامه، وقد عبر الشيخ ابن العطار عن هذه الحادثة بقوله :"عند ذلك أتاه الشيخ سيدي عبد الرحمان بن الفكون وهو إذ ذاك شيخ البلد صاحب ميرة[2]الولاة التي جعلوها له فخاطب صالح باي وقال له: اذهب إلى داري وأكاتب عليك الباشا فإنه لا يخفر ذمتي وأذهب أنا وأنت إلى الحج فأطاعه وخرج معه وذهب من كان معه في حال سبيله فلما وصل قرب داره وجد الديوان أعني ديوان القصبة في انتظاره فمسكوا صالح باي فالتفت إلى الشيخ وقال غدرت فأجابه : الغدر سبق منك فيك ولا في أهل البلد وذهبوا إلى القصبة فخنقوه"[3]، ونفس المعنى جاء في مرثية صالح باي والتي مازال سكان قسنطينة يتغنون بها منها قولهم على لسان صالح باي:" خرجت متهني، اعطاوني الأمان وخدعوني"[4].

---

[1]– انظر ناصر الدين سعيدوني، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر، ص 35

[2]– لعلها تعني صاحب شفاعة .

[3]– إبن المبارك، إبن العطار، المصدر السابق، ص74–75.

[4]– تعيد بعض المراجع كلمات الأغنية إلى أحد اليهود، إلا أن الألفاظ المستعملة بالقصيدة تدل على أن قائلها من عرب البادية، من ذلك عبارة "قالوا العرب قالوا" و" دنقت لدزاير...ما عرفش قليبي واش اللي صابر"، فكلمة "دنقت" وتعني نظرت، من اللهجة التي عرف بها سكان منطقة سطيف بغرب قسنطينة، وما زالت تستعمل حتى الآن بنفس المنطقة ولا تستعمل في قسنطينة حيث كان يتواجد اليهود ،أنظر نص القصيدة كاملا بـ: فاطمة الزهراء قشي: قسنطينة المدينة والمجتمع، ملحق رقم 1.

وبإعدام صالح باي أنقذت المدينة، حسب ابن العطار، من حرب أهلية وبذلك تعاظمت مكانة أسرة الفكون لدى الحكام العثمانين وخاصة باشا الجزائر. وبنفس التدخل كان من الشيخ "محمد الفقون" في عهد تشاكر باي[1] (1233هـ/1810م)، الذي حاول بدوره الانفصال عن باشا الجزائر وعند وصول الباي الجديد "قارة علي" بقرار من الباشا بفصل الباي تشاكر فكر هذا في الاحتماء بدار الشيخ الفكون للإفلات من العقاب فأرسل له يطلب الشفاعة إلا أن الشيخ سلمه إلى الباي الجديد بمجرد دخوله إلى بيته وبذلك تم القبض عليه ثم قتله وكان ذلك العمل أكبر خدمة قدمها الشيخ لباشا الجزائر الذي أرسل له رسائل شكر وإعجاب بسياسته الحكيمة[2].

وفي نفس المجال يمكن الإشارة إلى نجاح الشيخ محمد الفكون[3] في إفشال الانقلاب الذي قام به الإنكشارية بقيادة أحمد شاوش ضد الباي علي بن يوسف، سنة 1223 هـ/1809م، إذ أرسل أعيان المدينة وعلى رأسهم شيخ الإسلام إلى الباشا بالجزائر يخبرونه بمقتل الباش آغا والباي واستيلاء أحمد شاوش على منصب الباي، كما اخبروه بنية الباي الجديد في مهاجمة مدينة الجزائر للاستيلاء على الحكم بها، فجاء رد الباشا بأمر السكان والشيخ الفكون بقتل جميع الإنكشارية بالمدينة ومنهم أحمد شاوش، إلا أن الشيخ الفكون، حسب ما جاء في تاريخ صالح العنتري، رفض القيام بهذه المجزرة و"...أشار عليهم بالقول الواضح والرأي المصيب قائلا لهم نعملوا (كذا) كل الجهد في قتل ذلك التركي الذي شق العصا وجاوز الحد وترجع باي من تلقاء نفسه وباشر تضييع الخزائن بيده

---

[1]- يقول صالح العنتري عن هذا الباي أنه : " رجل صاحب بطش غالب عليه صلابة العجم، يسفك الدمي(كذا)، في الحق والباطل، يأخذ أرزاق الناس بالغزو ولا يبالي بمن هو طائع أو عاصي "، الفريدة السونسة ص 63.

[2]- نفس المصدر، ص70.

[3]- انظر شجرة نسب أسرة الفكون في نهاية المقال.

فلازم (لابد) من قتله لأنه صاحب فساد وفتنة... ومن بعد أن تقتلوه تكتبوا (كذا) جوابا إلى الباشا بالجزائر نستعطفوه (كذا) ونطلبوه (كذا) بأن يعفوا (كذا) عن هذا العسكر..."[1]، وفعلا طبق رأي الشيخ وبذلك نال احترام وعرفان كبار رجال الحامية التركية وتقدير الباشا لحسن تصرفه وإنقاذ أرواح كثيرة كانت قد أهدرت دماؤها.

من هذه النماذج وغيرها يمكن تصور الدور السياسي الكبير الذي لعبه شيوخ أسرة الفكون بمدينة قسنطينة لإقرار الحكم العثماني، وهو ما أكسبهم، إلى جانب الامتيازات الأدبية، امتيازات مادية كبيرة كانت تتبع وظيفة شيخ البلد وشيخ الإسلام وقد لخص لنا الباحث الفرنسي Mercier هذه الامتيازات في:

- شرف منصب أمير ركب الحج وما كان يتبعه من امتيازات مادية منها أخذ الأمير على كل حاج ضريبة معينة وارث من يتوفى أثناء الرحلة[2].
- الإشراف المطلق على أوقاف الجامع الكبير،[3] وهو امتياز مادي كبير منح للأسرة فكان أهم مصدر لثروتها لأنه جمع العديد من العقارات والأراضي الواسعة.
- الإعفاء من الضرائب وجميع التكاليف على أملاك الأسرة المحبسة سواء بالريف أو المدينة وتضم الأراضي والمنازل والمتاجر والمطاحن وورشات النسيج والمخابز والبساتين وغيرها من العقارات.
- الإعفاء من السخرة, والضيفة, وضريبة الدخول والخروج من المدينة.
- حق احتكار ضريبة الزرابي والخشب المجلوب من منطقة الأوراس[4].

---

[1]- نفسه ص59-60.

[2]- لم يكن هذا خاصا بالشيخ الفكون بل بأي أمير لركب الحج. أنظر، دائرة المعارف الإسلامية (ركب الحج)، ص650.

[3] -قدرت في عهد صالح باي بـ 491ريال ومصاريف الجامع كانت لا تتعدى 408ريال. والباقي تستفيد منه أسرة الفكون في أمورها الخاصة. انظر، سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 241.

[4]- يبدو أن هذا الامتياز منح للأسرة منذ بداية العهد العثماني؛ إذ جاء في الظهير الذي كتبه فرحات باي

- حق احتكار ضريبة سوق الخضر والفواكه بالمدينة.
- الحصانة الخاصة لهم ولخدمهم وفلاحيهم ولأموالهم فلم يكن يتعرض لهم أحد بأي أذى، بالإضافة إلى حصانة بيت الشيخ وزاويته؛ فكان كل من يحتمي بهما يكن آمنا مهما كانت جريمته[1].

وكانت تكتب ظهائر (شهادات) رسمية خاصة بهذه الامتيازات تسلم لزعيم الأسرة، وعلى كل باشا جديد يتسلم الحكم في الجزائر وكل باي يولّى على قسنطينة أن يجدد هذه الظهائر للأسرة، وكان آخر ظهير كتب بهذا الشأن هو الذي كتبه الحاج أحمد آخر بايات قسنطينة سنة 1242هـ/1826م[2].

بفضل هذه الامتيازات المادية والأدبية تحولت أسرة الفكون إلى أسرة إقطاعية كبرى، ويكفي الإطلاع على المساحات التي قامت الدولة الجزائرية المستقلة بتأميمها في إطار الثورة الزراعية سنة 1971م لمعرفة ضخامة ما كانت تملكه هذه الأسرة من أراضي؛[3] كما أن من يرى بيت شيخ الإسلام رغم ما أصابه من خراب[4] يتأكد من المكانة التي كان شيوخ أسرة الفكون يتمتعون بها بمدينة قسنطينة في ظل الحكم العثماني.

للأسرة في أوائل ذي القعدة 1057هـ ديسمبر 1647م: "الحمد لله ليعلم من يقف على كتابنا هذا من القياد والعمال والخاص والعام ببلد قسنطينة ... فإننا أدينا عشور ما يأتي من جبل الأوراس من الفراش والحزمة بالجامع الأعظم كما جرت العادة السابقة في حياة أولينا البايلار (البايات ...)". أنظر: Vayssette: Op.cit, pp227- 228

[1] Mercier (E): Constantine au 16 em siècle, op.cit, pp 227-228.

[2] انظر نص هذه الظهائر بنفس المرجع، ص 229-245، وقد أعاد نشر بعضها الدكتور سعد الله في كتابه "شيخ الإسلام ..." ص 225-230.

[3] Benmati (M): Contribution a l'étude du secteur Agricol de la Commune de Constantine, Th. Magistere, S.C. De La Terre, U.de Constantine, 1977, p 116-139 et 145-189.

[4] - بني البيت بالبطحاء قرب الجامع الكبير من طرف الشيخ عبد الكريم الفكون (الحفيد)، وقد نال إعجاب الشاعر محمد السوسي، صديق شيخ الإسلام، فعبر عن ذلك في قصيدة مطولة مطلعها:

ألا عج إلى البطحاء ترى البرق ... على دار علم بالعلوم تضنض

وتذهب جلابات الدجا بضيائها ... كأنها قلوع تربـــــض

– انتقادات شيوخ أسرة الفكون للسياسة العثمانية:

أمام هذه المكانة المرموقة لأسرة الفكون وإخلاصها في خدمة العثمانيين، يتبادر إلى الأذهان سؤال كبير وهو: هل كانت تصرفات هؤلاء الشيوخ ومواقفهم من الأحداث السياسية بالمدينة نابعة من عملهم الصادق للحفاظ على مصالح السكان وأمنهم واستقرارهم؟ أم أنها كانت مجاراة للحكام ومسايرة لسياستهم، رغم ما اتسمت به من تقلبات وعيوب، حفاظا على ما اكتسبوه من امتيازات مادية وأدبية؟

إن الجواب على هذا التساؤل يمكن أن يكون بالإيجاب في الحالتين معا: لأن شيوخ الأسرة اكتسبوا امتيازات لم يكن من السهولة التفريط فيها، إلا أن الأمر المتفق عليه بين المؤرخين هو أن شيوخ أسرة الفكون عرفوا أيضا بالحكمة والتبصر في مواقفهم من مختلف الأحداث، لذا لم تكن هذه مواقف من السياسة العثمانية تخضع لضغوط الحكام ولا لاندفاع الشيوخ وهو ما جعل أحكامهم مقبولة من الحاكم والمحكوم على حد سواء، ولعل ذلك يعود لمكانة الأسرة العلمية وترفعها عن كل ما يمكن أن يسيء لسمعتها من ارتجالية وعدم تقدير للعواقب، وهي صفة وصف بها الرحالة المغربي "أبو سالم العياشي" الشيخ عبد الكريم الفكون(الحفيد) في قوله: "كان محافظا على سلوك وسيرة والده من التؤدة والحلم والوقار فأحبته القلوب ومالت إليه النفوس"[1]، كما أننا لا نستطيع اتهام شيوخ الأسرة بالتملق للحكام ومجاراتهم لهم في أخطائهم لأننا نجد في كتاباتهم بعض علامات السخط على الحكم العثماني والتذمر من تدهور الوضع في عهدهم، وخاصة الوضع الثقافي.

انظر، أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب، ط1، بيروت، 1986، ص216–218 (قد ضم البيت مقبرة مشائخ الإسلام ابتداء من عبد الكريم الحفيد (ت 1663م)(أنظر محمد شغيب، المرجع السابق.

[1]– أبو سالم عبد الله العياشي: ماء الموائد المشهورة بالرحلة العياشية، ج2، ط1، فاس، 1316هـ /1898م ،ص 390

من ذلك إشارة الشيخ عبد الكريم الفكون، صاحب كتاب منشور الهداية، إلى سبب تأليفه لمخطوطه، بقوله:"... أما بعد فلما رأيت الزمان بأهله تعثر وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر، وسحائب الجهل قد أطلت، وأسواق العلم كسدت فصار الجاهل رئيسا والعالم في منزله يدعى من أجلها خسيسا ..."[1]، ونفس الموقف عبر عنه ابنه محمد ابن عبد الكريم الفكون في مخطوطه "النوازل" لقوله على لسان والده : "وهذا الزمان كما يقال :

زمن على (كذا) قدر الوضيع به وغدا الشريف يحطه شرفـــه

كالبحر يرسو فيه لؤلؤ، سفـــلا و يعلوا (كذا) فوقه جيفـــه

شريفه خادم ذي الظلم والعـدوان ومشروفه متحلي بحلية البهتان"[2]

وحتى إذا لم يفصح الشيخان عن رأيهما في الحكام العثمانيين بصراحة، فإن هذه العبارات وغيرها مما ورد في كتابيهما تدل على تذمرهما من الوضع الثقافي في العهد العثماني، بل كان الشيخ عبد الكريم الفكون قد عبر صراحة عن كرهه لمن ساير الحكام العثمانيين من العلماء وسار في ركبهم، ولعل ذلك ما جعل أسرة الفكون لا تسعى لمصاهرة العناصر التركية[3].

كما أن تمسك شيوخ أسرة الفكون بمذهبهم المالكي، عكس بعض الأسر التي تحولت إلى المذهب الحنفي، مذهب السلطة، يدل على عدم مجاراتهم للحكام العثمانيين، في حين تحول العديد من الأسر القسنطينية إلى المذهب الحنفي وتولى شيوخها مناصب دينية هامه مثل القضاء والإفتاء الحنفي بعد اعتناق شيوخها لهذا المذهب بتشجيع من الحكام منها أسرة المسبح التي اعتنقت المذهب الحنفي بدفع من الباي عثمان 1804م، وقد عين شيخها محمد المسبح خطيبا بجامع سوق الغزل

1- عبد الكريم الفكون، المصدر السابق ص 31-32.

2- محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفكون التميمي، كتاب النوازل، مخطوط ملك للاسرة ص 204.

3- انظر: جميلة معاشي، الإنكشارية والمجتمع في قسنطينة، رسالة دكتوراه، جامعة قسنطينة، 2008.

الذي كان يصلي به الباي[1]، وكذلك أسرة ابن جلول التي تحول زعيمها عباس بن علي جلول إلى المذهب الحنفي في عهد الباي حسن بوقمّية (1125هـ/1713م) وبذلك نال الحضوة لدى هذا الباي ومنحه منصب الباش كاتب وقد اشتغل أحفاده بالقضاء الحنفي وكان آخرهم مصطفى بن جلول قاضي الحنفية بقسنطينة أيام الاحتلال الفرنسي للمدينة[2].

وقد انتقد الشيخ عبد الكريم الفكون، في كتابه منشور الهداية، كل من تمسك بهذه الوظائف وما كان يتبعها من امتيازات بمسايرة الوضع السياسي وخدمة البايات والتملق لهم لكسب رضاهم، خاصة أن هؤلاء كانوا، حسب نفس المصدر، كانوا يسومون العلماء ورجال الدين شتى أنواع الذل والانتقام إذا ما أحسوا منهم خطرا على حكمهم، وهو ما حدث للعديد من العلماء الذين تعرضوا لغضب البايات لفصاحتهم أو الخوف من شعبيتهم أو لميلهم لباي زال عهده أو لمجرد الفتنة وضرب الأسر بعضها ببعض قصد إضعافها.

وقد أورد لنا الشيخ الفكون عددا من الأمثلة على ما عاناه بعض العلماء من سجن وتغريم ونفي ومصادرة لأموالهم وحتى القتل، من ذلك إشارته إلى قتل الشيخ يحي الأوراسي الذي تولى الإفتاء بعاصمة الإيالة ووصل ما لم يصله غيره من مكانة عالية لدى الحكام. ويحي بن باديس الذي كان "نائب عن قضاة العجم" بقسنطينة وخطيبا بجامع القصبة، والذي تعرض للقتل مع جد الشيخ عبد الكريم لأمه وكان مزوارا للشرفاء[3]. وعبد العزيز النقاتي الذي كان كاتبا لدار إمارة قسنطينة ثم تعرض لغضب الباي محمد بن فرحات إثر رفضه دفع غرامة مالية فسجنه بسجن قسنطينة إلى أن توفي[4]. ومحمد التواتي الذي اضطر إلى الهجرة إلى تونس فرارا من أذية حكام

---

[1]- أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 411.

[2] Mercier (E): Histoire de Constantine, p244.

[3] -عبد الكريم الفكون: المصدر السابق ص 59.

[4] -نفس المصدر، ص 61.

قسنطينة[1]. وعبد الله بن الكماد الذي هدم بيته من طرف عسكر الجزائر[2]. والأمثلة كثيرة على العلماء الذين مارسوا الوظائف الدينية بالبايلك وشاركوا في مجالس الشورى بالمدينة ثم تعرضوا لانتقام البايات لسبب أو لآخر.

بالإضافة إلى هذا كانت الوظائف الحكومية، حسب الشيخ عبد الكريم الفكون، سببا في الشحناء التي وقعت بين العلماء، إذ تحول معظمهم إلى موظفين دنيين لا يهمهم سوى التمسك بالوظيفة وما تدره عليهم من امتيازات مادية، فكان العالم، حسب الشيخ عبد الكريم الفكون، يتملق للحكام ويقدم الرشاوى لينال الوظيفة أو ليحتفظ بها. وقد أورد لنا الشيخ عددا من الأمثلة على ذلك منها قوله عن المفتي احميدة بن حسن العربي أنه: "كان يخدم الولاة ويعظمهم ويمتهن نفسه في موالاتهم ويعطيهم الرشا..."[3]، ونفس الوصف خص به الكاتب عبد الله بن نعمون[4] وعددا كبيرا من رجال العلم والدين بقسنطينة، وقد حمّل الشيخ الفكون السياسة العثمانية مسؤولية هذا التحول في أخلاق وسلوك العلماء، كما أشار إلى نجاح هذه السياسة في التفرقة بين العلماء وبث الشقاق بينهم وساق أمثلة عديدة على ما كان يحصل من تنافس بين القضاة والعلماء منها تنافس الشيخ عبد الله بن نعمون مع أبي العباس أحمد بن باديس على منصب الإفتاء[5] الأمر الذي ولّد كرها شديدا بين هذين العالمين.

-موقف أسرة الفكون من الاستعمار الفرنسي:

رغم تذمر شيوخ أسرة الفكون من الحكام العثمانيين وانتقادهم لسياستهم تجاه العلم والعلماء بصفة خاصة، إلا أنهم سايروهم بما يخدم استقرار البلاد، واستمروا في

1- نفس المصدر، ص 59.

2- نفس المصدر، ص ص 77-78.

3- عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص 75

4- خص الكاتب هذا الشيخ بأبشع الصفات. أنظر، نفس المصدر، ص 81-89.

5- نفس المصدر، ص83.

إخلاصهم لهم وتمسكهم بحكمهم حتى مجيء الاستعمار الفرنسي، وأهم من أبرز موقف أسرة الفكون من الاحتلال الفرنسي لمدينة قسنطينة هو محمد الصالح العنتري في تأريخه للمدينة، إذ أشار في عدة مواقف إلى حكمة شيخ البلاد "محمد الفكون"، من الاحتلال الفرنسي، فأبرز تمسك الشيخ الفكون بالحكم العثماني، بوقوفه مع الحاج أحمد باي آخر بايات قسنطينة وآخر ممثل للحكم العثماني في الجزائر بعد سقوط عاصمة الإيالة في يد الفرنسيين في 5 جويلية 1830م، كما أبرز وقوفه وراء إخماد ثورة الانكشارية ضد الحاج أحمد بعد رجوعه من مدينة الجزائر، وكان وراء تزكية الحاج أحمد لحكم قسنطينة كآخر ممثل للحكم العثماني في الجزائر، وكان ختم شيخ البلد في وثيقة البيعة التي كتبت من طرف علماء البلد وأعيانها لصالح الحاج أحمد على رأس أختام بقية أعيان قسنطينة[1].

أما موقف الشيخ محمد الفكون من مقاومة الباي للفرنسيين فكان، حسب نفس المصدر، على مرحلتين:

1- مرحلة ما قبل احتلال مدينة قسنطينة: وقف شيخ البلد في هذه المرحلة بكل حزم مع الحاج أحمد لمقاومة الغزو الفرنسي، فشجع السكان على مساندة الحاج أحمد في كفاحه لصد الهجمات الفرنسية على قسنطينة، كما تدخل في توجيه سياسة الباي لجعلها أكثر ملائمة لمصالح المجتمع، وكان الشيخ على اتصال مستمر بكل المستجدات في الوضع بين القوات الفرنسية وقوات الحاج أحمد، وما أن بدأ شيخ البلد يحس بخطورة الوضع الأمني على أهل قسنطينة لتعنت القوات الفرنسية حتى بدأ يتجه نحو المحافظة على أرواح أهل البلد ويحث الباي على فتح مفاوضات مع الفرنسيين، فكان وراء فتح المفاوضات مع القوات الفرنسية وكان الباي يستشيره في كل خطوة يخطوها في هذه المفاوضات، إلا أن شروط الباي لوقف الحرب كانت ترتكز على خروج الفرنسيين من عنابة، وهو أمر يرفضه الطرف الفرنسي رفضا

1- صالح العنتري، الفريدة المونسة، ص ص 194-195.

قاطعا. وأمام تعنت الفرنسيين وتعثر المفاوضات بين الطرفين حث الشيخ الفكون الباي على التضحية بمدينة عنابة للحفاظ على قسنطينة وهو ما رفضه الباي رفضا قاطعا. وقد عبر العنتري عن ذلك بقوله: " تكلم سيدي الشيخ بن الفقون مع الحاج أحمد باي والبعض من أكابر قسنطينة منهم قايد الدار بن البحاوي والسيد مصطفى بن جلول قاضي الحنفية والسيد أحمد العباسي قاضي المالكية والسيد محمد بن جلول باش كاتب وسي محمد بن الحاج شيخ العرب وسي محمد العربي بن عيسى الناظر والمفتاء سيدي عمار بن الغربي وسيدي مصطفى بن الشاوش واحتجوا عليه بالدليل الأصح والقول المفيد الموضح قائلين له يا حاج أحمد باي الحق مع ناس عنابة من كونهم موالين البحر وما عندهم قدرة يدفعون بها الضرر وعنابة في يد الفرانصيص فلا يمكنك نزعها من يده... فانظر وخمم قبل وقوع الغضب وكان الأحسن عليك والنفيع إليك أنك لو تتكلم مع الفرانصيص وتكاتبه وتطلب مهادنته... فتراه لم يعمل بكلامهم ولم يلتفت إلى مقالهم... وكان في سابق زمانه أنه ما يعمل شيئا إلا بمشورة الناس الكبار وأصحاب العقول الفضلاء الأخيار فيسهل عليه كل شيء صعيب"[1].

ورغم تعنت الباي ورفض الفرنسيين لشروطه وقف شيخ البلد بحزم للدفاع عن مدينة قسنطينة وحث السكان على الدفاع عن مدينتهم، وكان الانتصار على الفرنسيين سنة في1252هـ/1836م، إلا أن الوضع الأمني زاد سوءا في البلاد، وفي خضم ذلك الوضع تحول الصراع إلى داخل الصفوف المحلية، إذ قام الباي بإعدام العديد من أعيان البلد بتهمة الخيانة وكان على رأس هؤلاء محمد العنتري الوسيط الأساسي بين الباي والفرنسيين، وبعد تلك الاغتيالات ووصول الفرنسيين إلى مشارف المدينة، إذ بعد انهزام الفرنسيين تم الاتصال بيوسف باي عنابة وكتب الرسالة محمد العنتري بموافقة سيدي الشيخ بن الفكون وأعيان قسنطينة قصد فتح مفاوضات

---

[1]- نفس المصدر: ص ص 106-108.

مباشرة مع الفرنسيين حقنا لدماء سكان قسنطينة ويقول العنتري أن الشيخ الفكون شرح الأمر للباي بقوله:"... يا حاج أحمد باي أنت أميرنا والواجب على الأمير يحمي بلاده ويدفع الضرر على رعيته وأنت ما حميتنا...فكيف لا نسعوا في العافية لنا ولأولادنا..." وأكد له أن الشجاعة لا تنقص القسنطينيين للدفاع عن بلدهم لكن سقوط مدينة الجزائر يعني سقوط الدولة "..فكيف نحن لا نعتذروا على أنفسنا ولا نطلب المهادنة لتكون العافية لنا ولأولادنا.."[1].

2- مرحلة ما بعد احتلال المدينة: كانت آخر مراسلة بين الفرنسيين وأهل البلد في 13رجب 1253/ 13 أكتوبر 1837، وعكس ما نصح به أعيان البلد وعلى رأسهم الشيخ محمد الفكون، كانت شروط الحاج أحمد غير مقبولة من طرف الفرنسيين الذين قرروا الهجوم على المدينة، وعند دخولهم المدينة قتل العديد من أعيان منهم قايد الدار ابن البحاوي الذي توفي متأثرا بجروحه ويصف العنتري الهلع والرعب الذي انتشر بين السكان بعد دخول الفرنسيين المدينة فلم يجدوا ملاذا غير بيت الشيخ محمد الفكون الذي نصحهم بإعلان استسلامهم حفاظا على أرواحهم وأرواح أسرهم وهو ما عبر عنه العنتري بقوله: "..فروا المسلمين والتجئوا إلى سيدي الشيخ بن الفقون مستغيثين به قائلون كيف يكون خلاصنا وأين السبيل ...فأشار عليهم بتعليق بندیرة طلب الأمان التي هي علامة الدخول في الطاعة وانقطاع الأفتتان وكتب جوابا في الحال وأعطاه للبعض من أعيان البلاد وأمرهم يمشون بالفور لأجل مقابلة ولد السلطان والماريشال ..."[2].

وبعد تنفيذ السكان لمشورة شيخ البلد أعطي لهم الأمان وذهب الماريشال والكومندان إلى دار الشيخ الفكون ليضمن أهل البلد ولما وصلوا إليه استقبلهم بقوله أن قسنطينة لم يسبق لها أن احتلت بالقوة إلا في عهدهم، أي أن حكمهم جاء

1- انظر نفس المصدر، ص ص 117- 118-119.

2- نفس المصدر: ص 137

عنوة عكس الحكم العثماني وأن قبوله من طرف السكان كان أمرا واقعا فرضته قوة السلاح الفرنسي وليس برضى من أهلها، لذا لم يكن أمام شيخ البلد إلا طلب الأمان لسكان المدينة ونصح القادة الفرنسيين بتوخي العدل في حكمهم للبلاد «...فيجب عليكم أن تعملوا الخير وتعطوا الأمان إلى ناس البلد فبذلك يتمهد لكم البلد» [1].

وأمام حكمة الشيخ الفكون وبعد أسبوع من الاستقرار بالمدينة فكر الفرنسيون في الاعتماد على أسرة الفكون لضمان الاستقرار لحكمهم على غرار الحكم العثماني واختاروا سي حمودة[2] ولد الشيخ محمد الفكون لوظيفة شيخ البلد، وهو ما اعترض عليه والده بشدة رافضا خدمة أسرته للفرنسيين وقد أشار العنتري لذلك بقوله: " ثم اتفقوا على سي حمودة ولد سيدي الشيخ واختاروه ولذلك الوظيفة يقدموه لكونه ذو أصل قديم نسل شائع كريم فعند ذلك نهضوا أكابر الفرانصيص منهم الكامنده بيدو ...ومشوا جميعا إلى دار سيدي الشيخ واستقروا بالجامع الكبير لأجل أن يلبسوه وحضروا ناس البلد والعلماء وذلك في السابع من يوم دخول الفرنصيص في بلد قسنطينة فلما سمع أبوه وهو سيدي الشيخ تحير وبكى قائلا ولدي صغير ونحن زاوية ملجأ القليلين... وما نحتاجوا من الدولة الفرانصوية إلا الاحترام مثل ما كانوا الدول الأولين"[3].

– أسرة الفكون في ظل الحكم الفرنسي:

كان تعيين حمودة بن الفكون أول خطوة تخطوها أسرة الفكون نحو ذل لم تعهده في ظل الحكم العثماني، فقد عمد الفرنسيون إلى تسخير الشيخ لخدمة أغراضهم دون الحفاظ على مكانته على غرار ما فعله العثمانيون، إذ ألغي منصب شيخ الإسلام

---

[1] –نفسه. ص ص 138–139.

[2] –انظر شجرة نسب الأسرة في نهاية المقال.

[3] –انظر نفس المصدر. ص ص 142–146.

وتحول منصب شيخ البلد إلى مجرد وظيفة تابعة للإدارة الفرنسية، وتحول عز شيخ البلد إلى ذل نكتشفه من أسلوب التملق الذي كان يكتب به رسائله إلى القادة الفرنسيين كقوله في رسالة بتاريخ 29 رجب 1253هـ/29 أكتوبر 1837م، مما جاء فيها: " حضرة المعظم الأرفع المحترم... الجنينار الكبير حاكم كافة المحال الفرنساوية أيده الله... إلى أن أنعمت علينا ووليتنا تلك الخطة اسعد الله أحوالكم... وما أنا إلا من جملة خدمكم المقربين وأتباعكم المنصحين... إن كل ما تفعلونه ويقتضيه نظركم لا مخالفة لنا فيه... وأما نحن ومخازنتنا فإنهم يكونون مع المزبور حالا واحدا ... وأما الثلاثمائة رأس بقر والمائتي ألف فرنك فإنا مجدون في أمر البقر والدراهم كما تحدثنا معكم الأجل مدة شهر نقضوا فيها الحاجة والمراد منكم عمل التاويل فإنا منكم ومحسوبون عليكم وأما أولاد الداي فإنا هذه الساعة لم نجدوا ما نقابلوهم به لأن مقامهم عظيم وبد هذا إن شاء الله نوجدوا لهم ما يصلح بمقامهم ونرسلوهم إلى فرنسة الحاصل فإني مجد في الخدمة اناء الليل وأطراف النهار... محمد ولد شيخ البلد 29 رجب سنة 1253".

ومن هذه الرسالة نلمس صورا عديدة من أسلوب التملق للسلطة الفرنسية وبداية الرضوخ لمطالبها المادية والسياسية، وذلك بعد فترة وجيزة، لم تتعد الأسبوعين، من احتلال المدينة.

بالإضافة إلى تراجع هيبة أسرة الفكون لدى السلطة الحاكمة تعرضت أملاكها الواسعة إلى النهب والحجز والتأميم، وهو موضوع العديد من الرسائل التي أرسلها أفراد أسرة الفكون وعلى رأسهم الشيخ حمودة، وكذا جماعة أعيان المدينة للمطالبة باسترجاع أملاك أسرة الفكون[1]، منها رسالة كتبت من طرف الشيخ حمودة نفسه بتاريخ 24 رجب 1263/ 8 جويلية 1847، أي بعد عشر سنوات من الاحتلال

---

[1]- يضم الأرشيف الفرنسي بـ: أكس أمبروفانس (AOM.Ex-en- provence) العديد من الرسائل التي تصب في نفس الموضوع.

الفرنسي لقسنطينة، يشتكي فيها إلى وزير الحربية الفرنسي، اليوطنان جينرال تريزيل، من الاستيلاء غير الشرعي من الدولة الفرنسية واليهود على أملاك أسرته، ويكفي الاطلاع على أسلوب هذه الرسالة ليتضح مدى الغبن والقهر والإذلال الذي أصبحت تعاني منه أسرة الفكون في ظل الحكم الفرنسي، بل منذ بداية الاحتلال، ولأهمية هذه الوثيقة نورد فيما يلي نصها الكامل[1]:

" قسنطينة في الثمانية من شهر جويلييت سنة1847[2] إلى الحضرة العلية السيد اليوطنان جينرال تريزيل وزير الحرب دام عزه وشرف منصبه ءامين نعم الذي أعلمكم به كما هو يجب علي اعراضه[3] [كذا] عليكم إني ما تجرأت في تحرير هذا الجواب الذي سند ذكره إلا من بعد المصائب العظيمة الحاصلة لنا ولأهل بيتنا ومن دوران الزمان وتصريفه من بعض الطالبين لنا في حقوق باطلة أو صادقة ولكن أنتج منهم الدفع المتين ونحن من جلنا ناس قائمين في الرزق من محصلات أملاك وفلاحة لا غير ومنها العز والمدخول فظل تحت أيادي الدولة العلية الجل منها فتحصل لنا بهذا الاستيلاء الضرر البين عند جميع الناس الذي بسببه التزمت أنا فيه طالبا من فضلكم ومن حق الدولة العلية أن تجعلوا لي طريقا ومسلكا في شدّتي الواجدة وما استبحت بجميع ما وضحت لكم إلا لما أنا متمسك بجميع الرسوم المبينة حقوقي وتمليكي في جميع العقار الممنوع عني غصبا ومالي إن سيادتكم تنظر حقوقي وتعلم حق مطلوبي وهذا انتشأ مني أني جعلت لكل واحد من العقود ترجمة بالفرانصوي وإن كان مراد السيادة لشتى نظركم فحالا يكون حضورهم بالفور ولكن أقسمتم بالله وبالله القوي ثم وأقسمتم بالحق والعدل الذي هو قائم بالمملكة الفرانصوية من أجل هذا فإنه قد قرب حالنا للتشتيت وتبين ذهاب اسم شرف آباءنا وأجدادنا للزوال بعد ستمائة

---

[1] – انظر صورة الرسالة في نهاية المقال.

[2] – وضع ختم الشيخ مباشرة بعد التاريخ (شكل تاختم دائري كتب عليه: يافرد ياصمد ألطف بعبدك الفكوني حمودة بن محمد التاريخ)

[3] – الصواب عرضه.

سنة الذي هو قائم بطريق عز وحرمة ودلال في عمالات [كذا] قسنطينة يا فهل لا تريدوا مع وجودكم يكون تشتيت حالنا بين الناس والعداة(العدو) وينظر القليل[1] والغني من أهل الإسلام فينا قلة الحرمة والتاويل الذي به في الحين ما يبق صبرا في قلوب العامة التابعين دولة فرانصة[2] وفي الحقيقة أن العرب يوجد منهم أهل مقام وكرامة يحبون أولاد ملوكهم وأعيان بلادهم ولو كانوا ظلّما أو أهل شر مقصودي بهذا الكلام بشأن مجد وشرف وقوة أحكام دولة فرانصة حتى لا يكون للمسلمين إخواني قايلين أن دولة افرانصة أهل جفة(جفاء) وقلة أحكام ولكن ما التزمت في هذا إلا مثال الا من بعد شدة الأمر الذي هو حالاً عني من ستة سنين[3] إلى الآن وبه انتشاكين يقال في الغران إسرائيلي مد أياديه في أثاثي وامتعت [كذا] ءابائي وأجدادي ويبيعها في المنادى كالبقول والدواب والغالي منها يبيعه بالحقير وبعد هذا الرزية كل الرزية نصيروا بعد ما كنا أهل غناء(غنى) وتيسير نصيرزا[كذا] أهل احتياج وتعسير وحقوقي ومدخولات أملاكي ممنوعة عني بيد الدولة التي هي اغنى الدول ولكن من جزيل فضلكم أن تسمحوا لي جميع ما ذكرته لكم لأن الذي يشرف الغرق مع عزة الدنيا يخمم النجات[كذا] في أحبال العرمط (عود التبن) ولكن سيادتكم هو العمود القوي ونومل إن شاء الله مع نظركم القوي وحبكم الخير والإحسان وواسطتكم عند الدولة العلية ما يتحصل علي إلا الخير والإحسان برد أملاكي الذي بهم يكون رجوعي بين الناس في عز أداء ما لزم علينا للإسرائيلي[4] وغيره من الدراهم

---

[1]– كلمة عامية تعني الفقير.

[2]– توحي الجملة "وينظر القليل والغني من أهل الإسلام فينا قلة الحرمة والتاويل الذي به في الحين ما يبق صبرا" بأن الشيخ يحذر السلطة الفرنسية من ثورة المسلمين غيرة على قلة احترام الدولة الفرنسية لشيوخهم.

[3]– أي أن الاستيلاء على أملاك الأسرة بدأ منذ سنة 1841، أي بعد أقل من أربع سنوات من احتلال قسنطينة.

[4]– في الأصل للسرايبلي.

الخابطة[1] بنا من قبة المدخولات الجائرة لنا شرعا كأولاد جبارة وبوحنيب وغير ذلك من أملاكنا التي هي داخل البلاد وخارجها الحاصلة بتمليك صحيح الذي ليس هو بطريق هبة ولا بقوة ظهر ولا بعطية حاكم ولا بظلم أو غصب ولاكن من شراء وتمليك جائز شرعا وبدفع الثمن معاينة قطع بعد قطع محررين بشهادة العدالة قبل القرن العاشر وما بعده كل ذلك مترجم عندي باللغوة(اللغة) الفرانصي كما إن شاء الله تنظروهم في ديوانكم مع هذا الجواب قاصدا بهذا التراجم أولا حتى لا تكون الناس من أهل الإسلام قايلين أن آبائي وأجدادي ظلمت الأملاك بالاستيلاء وثانيا حتى لا يكون للدولة غلط فيما هو يُعَدُّ لآبائي وأجدادي من الأملاك وقد مضت ستة سنين وأنا صابر نرتجي لباب الفرج أوّله من الله تعالى وثم من الدولة العلية وحتى إلى الآن ما ألزمت نفسي بالكلام إلا من شدة الأحوال وصعوبة الوقت الذي تقرر فيه السيادة تستخبر بما ألزمني من الضرر الذي أحله انتشالي من طريق الحكم السابق وهو أن الإسرائيلي ناربوني بن دحمان قد خرّج عني جوجمة[2] طالبا مني ستة وعشرين ألف فرنك والآن وكيل المذكور يعقوب بن عمور القاطن بقسنطينة يطلب مني دفع الدراهم على الفور وإن كان لا وبالمهلة فيطلب الفائدة المهلكة(الكبيرة) وإن كان لا فقصده التشريك في بيع ما لنا من الأملاك والأثاث واسلاب الأهل والإخوان وإن كان وقوع هذا علينا مع وجود سيادتكم من مكر اسرائيلي وخداعه كما هو في علم كل العامة فالصبر لله والموت أجمل من هذا القهر وإن شاء الله كيف نحن تحت ولايتكم ونظركم فلا يعظم عليكم إصلاح حالنا وترتيبه لأنكم دولة عظيمة والشيء العظيم لا يكون عنده عجز في عظيم وبالخصوص طلبنا الحقير إلى دولة فرانصة العظيمة في رد مالنا من الأملاك المذكورة على وجه الحق والصواب وهذا ما منا إليكم دامت سعادتكم وآخر هذا فالرجى [كذا] (الرجاء) من الجناب العالي ردّ الجواب

---

[1]- يقصد بهذه الكلمة : الديون التي تراكمت على الأسرة.

[2]- عبارة عامية تعني: رفع ضدي قضية، أو حكم.

علينا من فضلكم بالأقرب من الزمان والسلام حمودة بن الشيخ تحريرا في رسم السنة العربية في اليوم 24 من رجب سنة 1263 "[1] (إمضاء وختم الشيخ حمودة)

الخاتمـــة:

من هنا يمكن الوصول إلى نتيجة واحدة وهي أن بايات قسنطينة ومن ورائهم باشوات الجزائر نجحوا في تسخير أهم أسرة دينية بقسنطينة لترسيخ حكمهم بمدينة قسنطينة لمدة تجاوزت الثلاثة قرون والحديث المطول عن أسرة الفكون لا يعني أنها الأسرة الوحيدة التي استطاع الحكام العثمانيون استمالتها لخدمة حكمهم، إلا أن هذه الأسرة كانت أكثر الأسر تأثيرا على الحكام العثمانيين وأكثرها إخلاصا لهم وخدمة لاستقرار حكمهم، وفي نفس الوقت كانت أكثر الأسر استفادة من الحكم العثماني ماديا ومعنويا.

وإذا كانت بعض الأسر القسنطينية قد تخلت عن ولائها للعثمانيين بمجرد استيلاء الفرنسيين على المدينة ودخلت في خدمة الوافدين الجدد، وهرب البعض الآخر ممن رفضوا ذلك الاحتلال، فإن أسرة الفكون أصرت على البقاء بمدينة قسنطينة ودافعت عن سكانها بما استطاعت من نفوذ وحكمة، رافضة في نفس الوقت الدخول في خدمة الفرنسيين، ورغم تعيين أحد أفرادها، وهو حمودة بن الشيخ محمد الفكون، شيخا على المدينة فإن الأسرة فقدت مكانتها السياسية والمالية بالمدينة بمجرد استقرار الحكم الفرنسي بها وانتهى كل ما كان للأسرة من عز وجاه، توارثه أبناءها طوال فترة الحكم العثماني.

[1] أرشيف ما وراء البحار "أكس أمبروفانس" فرنسا. (AOM 1H4)

شجرة الشيوخ[1]

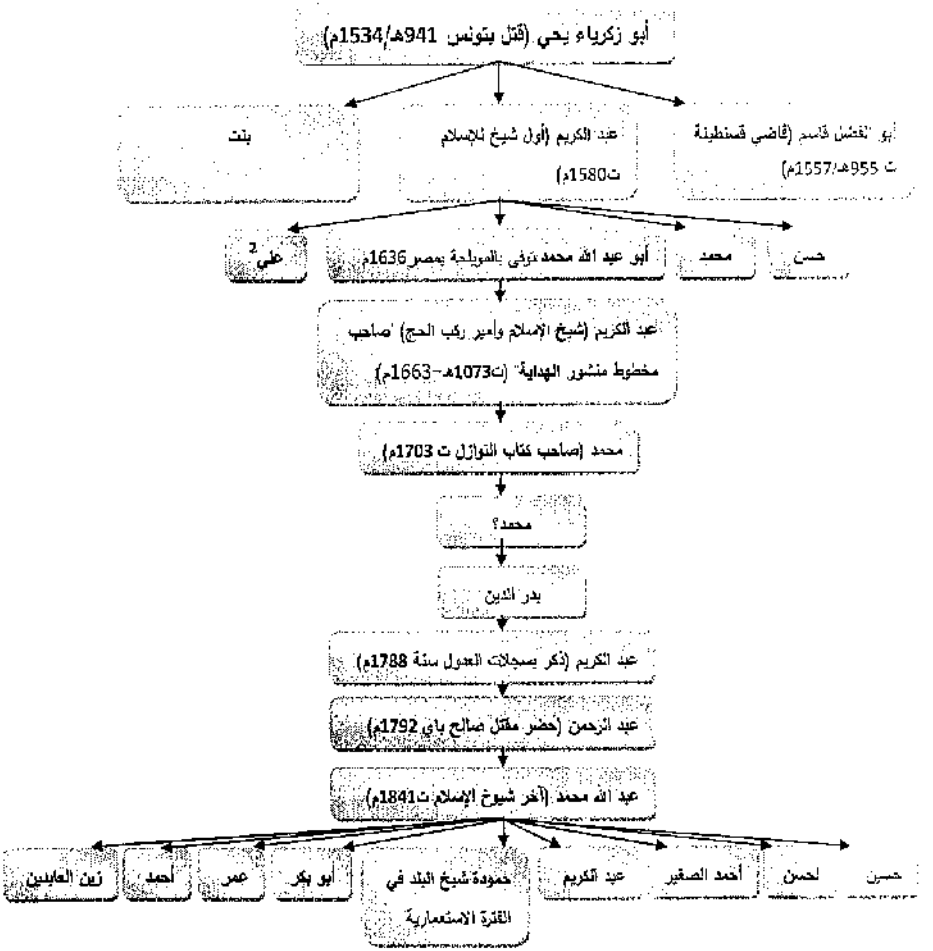

[1] تم التمكن من العثور على شجرة رسمية فاعتمدت على المصادر والمراجع المعتمدة في الدراسة لوضع هذه الشجرة التقريبية والذيلية للتعديل. للمقارنة أنظر الشجرة التي وضعتها الأستاذة فاطمة الزهراء قشي: الحياة الفكرية في قسنطينة خلال العهد العثماني، المجلة التاريخية المغربية، عدد 57-58، تونس، 1990، ص337.

[2] يقول عنه الشيخ عبد الكريم أنه "كان من البلد وصلحاء أهل زمنه ودفن بمدرسة الجد". أنظر منشور الهداية، ص52.

صورة لرسالة الشيخ حمودة بن محمد الفكون إلى السلطات الفرنسية للمطالبة باسترداد أملاك أسرته: